حفريات في استيهامات المخيال الغربي
الإسلام، الشرق و العنف في أدب الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر

د/ نصرالدين بن غنيسة
كليـــــة الآداب واللغـــــات
جامعة بسكــرة

الملخص:

وإن وقوفنا على السياق الاستعماري الذي انبجس بين ثناياه أدب الرحلة، دفعنا إلى دراسة العلاقة الاستيهامية بين الإسلام والعنف والتي روّج لها هؤلاء الرحالة بعدّها مقدمة "علموية" للمشروع الاستعماري الغربي الذي تلقفته الذهنية العسكرية لتقدمه ذريعة لاستعمال العنف في إبادة الشعوب الإسلامية. وهو عنف وليد ضرورة هوياتية استشعرتها الذات الغربية الناشئة في القرن 19، لتأسيس أناها القائمة على أيديولوجية التضاد مع الآخر.

Abstract :

If we stand on the colonial context which appeared between its lines the travel literature, led us to study the fantasmatic relationship between Islam and violence and promoted by these travelers by being "positivist" introduction of colonial western project which has been adopted by mental military to offer an excuse for the use of violence in the extermination of the Islamic peoples. It is violence which was a product of necesserary identity, that was felt by Western self arising in the 19th century, to establish the self list on the ideological contrast with the other.

***- الإسلاموفوبيا أو الرهاب الثقافي:**

لقد اكتسح مصطلح الإسلاموفوبيا الساحة الإعلامية بفرنسا، بعد أحداث 11 أيلول، لكن ما كان ذلك ليطمس تاريخه المفهومي الذي أسست دلالاته المختلفة مرجعيات دولية متعددة (كالأمم المتحدة، المجلس الأوربي والاتحاد الأوربي). والحقيقة أن الحمولة الدلالية لهذا المصطلح لا ترتبط بظهوره المكثف إعلاميا، وإنما هي تمظهرات لانزياحات معرفية متعلقة بأنماط تفكير غربي ظل يحاصر المسلم بتهمة الانتماء، تارة إلى العروبة، وطورا إلى الشرق وأخيرا إلى الإسلام. فالإسلاموفوبيا ليست إلا إجراء ثقافي يشرّع حصر الآخر في بوتقة إثنية، عززتها سياسات إقصاء الآخر (المهاجرين) في فضاءات هامشية (الضواحي)، فتولدت مظاهر عنف أفزعت المجتمع الفرنسي، وكانت أقسى تجلياتها أحداث نوفمبر 2005؛ حين راح شباب الضواحي يحرقون الأخضر واليابس في كل ربوع فرنسا. فهناك علاقة لا يمكن إنكارها والتي تتميز بالتعقيد بين العنف الثقافي القائم على الإقصاء والعنف الاجتماعي الذي هو نتاج لهذا الإقصاء، زاده الوضع الدولي تأزما. إذ إن توارد الوقائع السياسية في العالم.[1]

أكسب المخيال الغربي جرأة جعلته لا يتورع عن إعادة إنتاج صورة ثقافية ارتبط خلالها الإسلام ذات يوم بالعنف ارتباطا عضويا. فكان هذا الاستيهام المرضي معبرا لتشكل ظاهرة الإسلاموفوبيا التي يعرفها Michel Reeber بأنها ذلك الخوف غير العقلاني والرفض الشامل للإسلام كدين ونمط حياة ومشروع حضاري وثقافي. [2]

ولا يبتعد كثير المركز من أجل المساواة والنضال ضد العنصرية في بلجيكا في تعريفه للإسلاموفوبيا عما أوردناه سالفا؛ إذ تعادل في عرفه "كراهية ونبذ الإسلام بعد اختزاله في جوهر شرير، بينما الإسلام في الواقع متعدد، إن على المستوى الاجتماعي أو الجغرافي أو التاريخي أو الثقافي. إن هذه الكراهية تغذيها أفكار مسبقة وأحكام جاهزة وصور نمطية سلبية هي في غالب الأحيان خلط بين الثقافة والدين".[3] إذن الأمر يتعلق بخوف يحول دون التواصل مع الآخر والحوار معه والذي يجعل من المسلم كبش فداء لكل أنواع الشرور والمصائب التي يتخبط فيها العالم. إذ لم يعد هناك ما يفصل دلاليا بين مسلم–إسلامي–أصولي–إرهابي. ومثل الحكاية ليست بالجديدة على الأدبيات الإعلامية والثقافية، فهي

تعود إلى زمن غابر شكل بؤرة لقاء بين الثقافتين الشرقية والغربية ناس بين فترة انفتاح وسلام وأخرى للانغلاق والحرب، وسنركز في بحثنا هنا على فترة الانغلاق والتمترس الثقافي المفضي إلى المواجهة التي عرفها القرن التاسع عشر والقرن العشرون بما يمثلانه من علاقة مرضية بين غرب مهيمن، استعماري وشرق مهيمن عليه، خاضع للاستعمار.

***- البربرية، الإسلام وحرب الحضارات:**

ابتداء، فإن المنظومة الاستعمارية الغربية تفرق في الغالب بين مصطلحي "المتوحش" و "البربري"؛ فهي في وصفها للمسلم تتحاشى أن تسمه بالمتوحش لأنها تدرك جيدا أنها أعجز من أن تلغي حضارته الإنسانية التي شعت بأنوارها على ربوع العالم، لكنها لا تتردد في وصفه بالبربري [وهنا لا تعني به غير العربي من السكان الأصليين لشمال أفريقيا أو ما يعرف بالأمازيغ] الذي تراجع القهقرى ليتدحرج إلى مصاف الهمجيين بسبب من حضارته السيئة الرتبطة بالدين الإسلامي.[4]

ولذلك عهدت هذه المنظومة إلى مفكريها للبحث عن حقيقة الدين الإسلامي بغية فهم ماضي هذه الشعوب وراهنها في سبيل تغييرها وحملها على تبني الحضارة الأوربية، ولم تجد هذه المنظومة في القرن التاسع عشر حرجا من أن ترى في الإسلام دينا يقوم على الحرب وتتأسس مبادئه على الدعوة إلى إبادة من يخالفه في الدين.[5] فكان أن تبلورت صورة للمسلم تركز على التشدد الديني الذي باسم الحق والعدل لا يتورع عن محو الآخر المختلف، وهو ما يعتبره Ch.Richard "يعارض منطقنا ورشدنا المسيحي"[6]. وعلى غرار ريتشارد، انبرى الكثير من الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر إلى عقد مقارنة ساذجة بين الإسلام والمسيحية تنتصر فيها هذه الأخيرة بطبيعة الأمر. وعلى هذا الأساس تولدت مجموعات من الضديات التي شكلت الخلفية البنيوية لأدب الرحلات الأوربية وحكمت سردها للأحداث والوقائع. فكانت الحدود الفارقة بين عالمين: عالم المسيح (عليه السلام) هو عالم مسالم، عادل ومهيأ لكل تطور حضاري، يقابله عالم الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهو عالم محارب، ظالم ومتخلف، والسبب في ذلك يعود إلى أن المؤمنين بهذا الدين هم أسرى ظلامية تعارض، بسبب من طابعها المحافظ، كل تقدم حضاري والتأثيرات الإيجابية للعلوم الأوربية.[7]

مثل هذه الرؤية الضدية للأشياء لا تخلو من منطق داخلي ظل يحكم علاقة الإسلام بالغرب إلى يوم الناس هذا. وما نظرية الصدام الحضاري لهنتنغتون عنا ببعيدة؛ إذ نجدها تعيد طرح هذه الضدية بأشكال جديدة تجعل من الغرب الليبرالي الديموقراطي معادلا ضديا للإسلام الشمولي المستبد.

ولقد ظلت صفة العنف الملصقة بالإسلام أهم ركيزة قامت عليها هذه الضدية لتؤسس لمقابل يتسم بحبه للسلام والخير للإنسانية. فكان أن روجت أوساط ثقافية وعلمية فرنسية لمثل هذا التقابل لتجعله مقدمة " علمية" للمشروع السياسي الاستعماري، فتلقفته الذهنية العسكرية عام 1820 لتقدمه ذريعة لإبادة شعب الجزائر، فقط بإشارة من ملك فرنسا.[8] وذلك بحجة أن "المسلمين لا هواية لهم سوى الاستيلاء على أملاك الغير بكل الوسائل الخسيسة. فهم، بسبب من فجورهم وكسلهم، أعداء للصناعة والفلاحة، ولا مجال لهم للازدهار إلا عبر قطع الطريق [...] فمنذ أن وجدوا على هذه البسيطة، لا يحملون السلاح إلا من أجل ذبح الأبرياء واقتسام خيراتهم"[9] وكان هذا كافيا لتبرير حملة عسكرية فرنسية على الجزائر عام 1830.

***- "المسلم" حيوان كاسر:**

وبما أن المسلم الجزائري هو دائما مضر بالإنسانية وبالطبيعة، فإن المخيال الاستعماري لم يتردد لحظة في أن يحشره في صورة نمطية تنزع عنه صفته الإنسانية لتعادله بالحيوان المفترس؛ فحيونة الإنسان المسلم ارتبطت ارتباطا عضويا بسياسة استئصاليه تشرّع لإبادة هذا العنصر الذي يضر بالإنسانية والطبيعة باستعمال كل الوسائل المتاحة. في مواجهة هذه الهمجية التي تهدد الحضارة، جاء الاستعمار ليجعل من العنف الذي ينبذه، نظريا، وسيلته الإجرائية الوحيدة لضمان استقرار المستعمرات بغية تحويلها إلى فضاءات حضارية على غرار شمال المتوسط. فالمعجم الدلالي لكثير من نصوص أدب الرحلة الفرنسية يزخر بكمّ هائل من الأوصاف التي تزج بالإنسان المسلم في حظيرة الحيوانات، وهو ما لم يتورع الكثير من الرحالة على تثبيته في أدبياتهم، ومنهم شاتوبريان.

*** شاتوبريان والشرق المطلق في مواجهة الغرب المطلق:**

يعدّ كتب شاتوبريان "رحلة من باريس إلى القدس، ومن القدس إلى باريس" (1810–1822) جماع معايشة لأهل الشرق في رحلة قام بها المؤلف بين (1805–1806) إلى تركيا وبلاد الشام مرورا بمصر وبلاد المغرب العربي. ولقد أبرزت الرحلة في حيثياتها "أنا" متضخمة لم يكن ليخفيها شاتوبريان بقوله: "أنا أتحدث على نحو أبدي عن ذاتي"[10] حتى إن الكثير من معاصريه انتقدوه لأنانيته المفرطة[11] التي لم تكن إلا أيقونة لأنا مركزية تعبر عنها الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر، وقد ألبسها شاتوبريان مسحة مسيحية راح يبرر من خلالها كل سطوة استعمارية استباحت ديار الإسلام، بحجة أن المسيحية تمتلك الأهلية لتحضير شعوب تنتمي إلى دين لا يحث المؤمنين على دفع الحضارة نحو الأمام ولا يعلمهم أن يعنوا بالحرية. دين أنتج "أناسا يمضون أيامهم بالبطش بالناس أو بالاستراحة على سجادة بين النسوة والعطور"[12].

بينما لا يجد حرجا في أن يضفي على العنف القادم من أوربا طابعا بطوليا[13]؛ (فالحروب الصليبية هي مشاريع حربية شجعت على تطور الآداب والحضارة)[14]. وهو ما حدا بهشام جعيط أن يرى في الصورة التي رسمها شاتوبريان عن الإسلام صورة قاسية وغير رحيمة[15] ويعزو ذلك إلى أن " صفات مثل وحشية، طغيان، عبودية، تعصب، تلتصق بهذه الشعوب [الإسلامية] التي تنتمي أساساً إلى السيف بكل بنيتها التاريخية، إن مثل هذا التاريخ البربري ينفي الحضارة ويبرر الحركة الصليبية الضخمة"[16] .

إلا أن نظرة ممعنة في صورة شاتوبريان عن الإسلام تجعلنا نتردد فيما أورده هشام جعيط من نفي للحضارة عن المسلمين، وإن كانت النتيجة واحدة، لأنها ستؤول إلى إقرار بهمجية المسلمين. إذ لماّ لم يتمكن شاتوبريان من مسح بجرة قلم حضارة أشاعت بفيض أنوارها على الإنسانية جمعاء قرونا عدّة، راح يرتكز في إدانة حاضرها على محاكمة شعبها مقارنة بالشعب الأمريكي. فرحلة شاتوبريان إلى أمريكا واكتشافه لشعبها دفعه لأن يعثر على ذات الطباع الوحشية التي اكتشفها عند العربي، فقط الفرق بينهما يكمن في أن الأمريكي يعيش العنف البري الذي لم يصل بعد إلى الحضارة، بينما يعادل العنف والوحشية عند العربي المسلم انتكاسة الرجل المتحضر.[17]

والحقيقة أن شاتوبريان لم ينج من فتنة المقارنة بين إثنيات متعددة صادفته أثناء رحلاته المتنوعة، مما أضفى على مثل هذه المقارنة مسحة إثنوغرافية واهمة تجعل صاحبها يحمل الانطباعات الذاتية محمل الحقائق العلمية. فالإجراء المقارني بين صورتي الشعبين العربي والأمريكي اللتين أفرزتهما ذاكرة شاتوبريان وفّر له الارتقاء بوهمه إلى مصاف الحقيقة التي لا تشوبها شائبة. الأمر الذي جعله يشدد من دون أدنى ريب على عنف العربي والأمريكي؛ "فإذا كان عنف العربي يتجلى عند مستوى فمه؛ إذ ما يبدأ العربي بالكلام حتى تسمع لغة صاخبة وملفوظة بملء النفس، وتلحظ أسنانا طويلة فاتنة ببياضها كأسنان ابن آوى، أو النمر الأبيض، فإن عنف الأمريكي يظهر في نظرة عينيه"[18].

وصفوة القول، إن الصفة الوحشية التي ألصقها المخيال الغربي بصورة المسلم الشرقي لم تكن بمعزل عن منظومة قيم أسست لمشروع مجتمع يسعى لتصدير تنويره إلى بقية العالم المتوحش. وفي هذا السياق تندرج رؤية فكتور هوجو للحملة الفرنسية على الجزائر.

***- فكتور هوجو العنف المتبادل:**

في فترة إقدام أوربا على استعمار بلاد العالم وبالأخص أفريقيا، لم يكن ليجرؤ المثقفون والسياسيون على إدانة وحشية الاستعمار إلا ما ندر. وما كان هوجو استثناء من هذا، على الرغم من أنه يعدّ المدافع الأول عن حقوق الإنسان وأبا البؤساء، إلا أن كتاباته تكاد تخلو من أية إشارة إلى بشاعة الممارسات الاستعمارية التي عايشها لحظة بلحظة. إبان الحكم الملكي لويس فيليب، لم تظهر مذكراته إلا القليل من مواقفه حيال الاستعمار الفرنسي للجزائر، إلا أن ذلك كان كافيا ليجعل من هذا المستنير داعية إلى العنف بحجة استئصال عنف الإنسان البربري الجزائري وحمله على الارتقاء إلى مصاف الحضارة: "أعتقد أن هذا الغزو الجديد هو أمر عظيم وباعث على السرور. إن الحضارة التي تطأ بأقدامها الهمجية، إنه شعب مستنير الذي سيكون على موعد مع شعب يعيش في الليل البهيم. إننا يونانيو العالم، علينا أن ننير الإنسانية"[19].

إن مثل هذا الاعتقاد القائم على صور فانتازمية تعادل بين المسلم الجزائري والمتوحش العنيف، وهو الذي لم يعرف الجزائر ولا الإسلام عن قرب، تجد ما يبررها في تلك الأنا المركزية التي ما فتئت تجعل من أوربا بؤرة العالم وتحمّلها مسؤولية حمل بقية العالم على سلوك سبيلها إلى الحضارة. فاتهام شعب بأكمله بالوحشية والبربرية كان بوابة هوجو لتبرير العنف الذي تلجأ إليه الحضارة الأوربية بغية تصدير تنويرها، فهو لا يني يقدم تشبيها لهذا العنف؛ فيرى فرنسا الاستعمارية حربة، مقبضها المدنيون رأسها العسكريون[20].

وهو الأمر الذي جعله يغض الطرف عن بشاعة الحملات العسكرية الفرنسية، معتقدا أنها شر لا بد منه. إذ في منفاه بألمانيا التقى عام 1851 بضابط سابق في الجيش الفرنسي حدثه عن فضاعة الحرب الدائرة رحاها في الجزائر، وقد أوردها هوجو في يومياته Choses vues إلا أنها ظلت حبيسة الأدراج؛ إذ لم يجد هوجو أي داع لنشرها في حينها، مع ما سيصاحب ذلك من خلخلة للمسلمات التنويرية التي قامت عليها حرب فرنسا في الجزائر. ومما أورده هوجو من شهادة الضابط قوله: "لقد حدثني الجنرال Le Flô مساء البارحة 16 أكتوبر 1852، أثناء الغارات على مساكن الجزائريين، لم يكن غريبا أو نادرا رؤية الجنود وهم يرمون الأطفال من أعلى النوافذ وآخرين يستقبلونهم بأسنة رماح أسلحتهم، فقد كانوا ينتزعون أقراط وآذان النساء في الآن نفسه، وكانوا يقطعون أصابع أيديهن وأرجلهن للاستيلاء على الخواتم"[21].

إلا أن كل هذه الشهادات السردية ظلت حبيسة كراسات هوجو و ماكان لها أن ترى النور إلا بعد عقود من وفاة هوجو. وبدرجة أقل، جاءت كتابات كل من جرار دو نرفال[22] التي وإن برأت من النوايا الاستعمارية إلا أنها كانت أسيرة مركزية شكلت نسقا قيميا تواضعت عليه الحضارة الغربية في سعيها للسيطرة على الإنسان والطبيعة.

*** نرفال والثنائيات المتضادة:**

يرى إدوارد سعيد أن نرفال "أنتج كتابه (رحلة إلى الشرق) كمجموعة من الملحوظات والتخطيطات الأولية و القصص والشذرات المتعلقة بأسفاره [...]،لم يكن الشرق عرضيا بالنسبة لأعماله، بل على العكس، فإن شرقه لم يكن شرقا أُدرِك، وصودر

وقُلِّص وصيغ في نظام ترميزي بقدر ما كان شرقا عيش فيه واستغل جماليا وخياليا"[23]. حتى وإن اعتقد إدوارد سعيد بالغاية الجمالية التي أسست لرحلة نرفال، حتى وإن برأه مما لصق بالرحلات الأخرى ذات الأغراض الاستعمارية[24]، غير أنه ما كان ليتخلص من ذهنية غربية استعلائية عززتها أنا حضارية قوية عسكريا، ساهمت في تحديد العلاقة بالآخر– المسلم، الضعيف، المتخلف، وفق رؤية تنميطية تختصره في صورة المتوحش العنيف.

لقد اعتمد نرفال، كما هو شأن كثير من كتاب الرحلة إلى الشرق، استراتيجيات تكاد تكون ثابتة، منها مسرحة الفضاء الشرقي، بحيث يتحول السارد إلى شاهد على فرجة مسرحية أبطالها شرقيون، مما يتيح له ملاحظة هذا الشرق من بعيد واستخلاص بعض من "الحقائق" التي توفرها هذه الموضوعية المفتعلة. فها هو دو نرفال يروي لنا مشهدا متفردا قائلا: " كنا شهودا حادثة غريبة، في ملتقى طرق، كان الناس مجتمعين في حلقة، ظننا في البدء أن الأمر متعلق بمصارعة بين لاعبين، أو رقصة الدب، بامتزاجنا بالحشد، رأينا جسدا مقطوع الرأس، مرتدي سترة وسروالا أزرقين، وقد وضعت الرأس مغطاة بقبعة [إفرنجية] بين الساقين..."[25] ليرسم في النهاية صورة عن التطرف الديني في المشرق، الأمر هنا يتعلق بالقسطنطينية، الذي يتجلى في أقسى صوره، متمثلة في إقامة الحدود على كل من المرتد والزاني. وهو ما حدث للقتيل الذي رآه دونرفال، مع إقرار مسبق بحرية الأديان وتعايشها، إذ لا يخفي الرجل إعجابه بالتناغم الطائفي بين الأتراك والأرمن واليونانيين واليهود في القسطنطينية العثمانية.[26]

في إطار من الضديات التي حكمت رؤية نرفال للشرق، فإن رحلته إلى الشرق (1851) كانت عرضا عاما للفضائل والنقائص التي يعج بها المجتمع الإسلامي في الشرق. وكان مدار هذا العرض القسم الأكبر من مؤلفه والذي تناول الموضوعات المتعلقة بالعادات والتقاليد والممارسات الاجتماعية. وعلى الرغم من تعاطفه العام مع البعد الإنساني للحياة في المجتمع الشرقي، إلا أن ارتباطه الوثيق بنظرته المنبثقة من هوية أوربية جعله أسير أحكام قيمية جردت المجتمعات الإسلامية من حقها في امتلاك منظومة قيم ذات منابع دينية، وما زاد الأمر تعقيدا هو التداخل المغلوط للقيم كمرجعية وجودية

بالممارسات الاجتماعية والتي هي في كثير من الأحيان وليدة سياقات ثقافية تتجاوز الدين الإسلامي في حد ذاته. مما جعل مثل هذه الممارسات عبئا على الإسلام ومحسوبة على منظومة قيمه الإنسانية.

***- موباسان وثنائية العنف والكسل:**

يعدّ غي دي موباسان رائد القصة القصيرة الفرنسية، حيث اكتسبت كتاباته الأدبية مكانة مرموقة في سماء الأدب العالمي الحديث، وهو ما حدا بنا إلى الالتفات إلى مقالاته التي كتبها عن الجزائر في رحلاته المتعددة إلى الجزائر (1881-1887-1890)، لا لقوتها البيانية أو لمصداقيتها العلمية، وإنما لما كان لها من أثر في بلورة صورة عن المسلم الجزائري وردت تفاصيلها على صفحات جريدة Le Gaulois الفرنسية. وكان الهدف المعلن عن هذه الرحلات هو اكتشاف عادات وتقاليد " الأهالي" الذين يعانون من ويلات الاستعمار منذ نصف قرن، كما كان من موباسان إلا أن راح يعدد ملاحظاته عن السلوكيات الجنسية "المنحرفة" للجزائريين، وكم كنا نود عرضها هنا إلا أن المقام لا يتسع لمثل ذلك، بيد أن ذلك لن يحول دون أن نستخلص من هذه الرؤية الجنسانية شذرات لصورة الجزائري المتسمة بالعنف والهمجية القريبة من الحيوانية، لما لذلك من وشائج ثقافية تجعل من الجنسي رديفا للعنف والوحشية.

فصورة النساء الجزائريات مقارنة بنظيرتهن الفرنسيات لا تخلو من حيوانية تفقدهن كل مشاعر وأحاسيس، "لأنهن يمتلكن قلوبا بدائية جدا، لا يمكنها أن تثير في الفرنسي تمجيدا للشعر والحب"[27]. تعززها صورة أخرى للجزائري لا تقل صلافة عن الأولى والتي تحشره في خانة "الشذوذ".

والحقيقة أن هذه الصورة النمطية للمسلم الجزائري المتأرجحة بين حيوانية وهمجية تستقي خيوطها من رؤية أخلاقية أشمل، جعلها موباسان معياره في تصويره للجزائري أسيرا لشهواته العنيفة التي تحدد علاقاته بالآخرين والتي تفسر قسوته الأسطورية. فهو عنيف مع زوجاته اللواتي يعاملهن كإماء فيجبرهن على أداء أعمال لا يأيتها عادة إلا الرجال، قاس تجاه أعدائه، خاصة المسيحيين منهم، الذين يخضعهم لأعتى أنواع التعذيب.

فهو عنف لا يجد له موباسان من تفسير سوى تلك النظرة المتعالية التي تجعل من الأنا الفرنسية معادلا لكل ما هو حضارة وإنسانية وسلام يقابلها ذلك الآخر الذي لن يكون سوى نفي للأنا؛ فهو متوحش، عنيف، قريب من الحيوان. فالعربي العجوز، له وجه فأر.[28] والمرأة العربية، عموما، صغيرة، بيضاء، تمتلك جسما يشبه جسم خروف صغير[29].

وإن هذه الإسقاطات الفانتازمية ما كان لها أن تنتزع بداهتها في المخيال الفرنسي لو لا تكرسيها من طرف النخبة التي راحت تبرر الاستعمار الفرنسي بحجة التنوير. وهو ما لم ينج منه موباسان الذي لم يكن ليخفي نظرته الاستعلائية حين يقرر أن الأرض الجزائرية بين الأيدي الفرنسية ستكون أكثر عطاء منها إذا ظلت بين أيدي هؤلاء العرب البدائيين الذي لا يمتلكون أي رابط بهذه الأرض. وإن مصيرهم لا محالة الانقراض وهو أمر لا يمكن إلا أن يكون في صالح الجزائر (الفرنسية)[30].

إن هذا التراكم للصور الفانتازمية التي توارثها الرحالة الفرنسيون والتي تتفاوت في كثافتها الرمزية في تصويرها للإسلام والشرق بصفة عامة، لن تكتمل دلالته إلا إذا غصنا في عمق آليات إنتاج هذه الصور واستخلصنا دواعيها الثقافية التي أسهمت في تعزيز القتامة التي استمت بها هذه الصور. والحق أن المتأمل في تاريخ الفكر الأوربي، منذ عصر التنوير ومرورا بالفترة الاستعمارية، يدرك مدى حاجة أوربا إلى هوية تتسم بالإيجاب، تعزز ثقتها في نهضتها التنويرية التي أطاحت بالفكر اللاهوتي وجعلت الإنسان الأوربي سيد الكون يسعى إلى السيطرة على الطبيعة (بما فيها الإنسان غير الأوربي).

وكانت هذه الهوية الناشئة بحاجة إلى هذا الآخر لا لتستكمل من خلاله نقصها، بل لتجعله مرآة عاكسة لكل ما هو ليس أنا. فكان نفي الإيجاب سلبا لا بد أن يتصف به هذا الآخر. ولا يهم ساعتها ما يمكن أن ينتجه هذا المخيال من قسمات متوحشة لصورة مشوهة عن الآخر.

فأن يتسم المسلم – الشرقي بالعنف، فهذا لم يعد بحاجة إلى ما يبرره؛ إذ لا يكتسب العنف في هذا المقام جوهره من ذاته، وإنما يستمد كينونته من الثنائية الضدية التي تقوم على إثبات الأنا بنفي الآخر؛ فالأنا هي كل ما ليس الآخر. فإذا كان هذا الآخر عنيفا، فإن

الأنا مسالمة، وإذا كان متوحشا، فإن الأنا متحضرة، وهكذا دواليك. وهو ما يسلمنا إلى ما دأبت الأنتروبولوجيا على دعوته بالتمركز الذاتي Egocentrisme.

فكان أن قسم الغرب العالم إلى مركز وأطراف، استنادا إلى اختراع خرافة "الغرب الأبدي" المضاد لـــ"الشرق الأبدي". وقد كان هذا الاختراع المزدوج، وفق عبد الله إبراهيم، "ضروريا من أجل تأكيد غلبة العناصر الإيجابية في الغرب وغلبة العناصر السلبية في الشرق"[31]. وهو ما يفرغ كل محاولة للدفاع عن المسلم الشرقي من تهمة العنف من فعاليتها، ويجعلها صيحة في واد، لأن منتج هذه التهمة لا يهمه صدقيتها بقدر ما يهمه انبثاقها من جدلية هوياتية يكون فيها هذا الآخر المتهم لبنة أساسية في تشكل هوية تقوم على الثنائية الضدية.

ومن هنا يكتسب التوجه نحو تفكيك آليات إنتاج الصور السلبية عن الآخر أهميته من حيث هو حفر في أركيولوجيا المخيال الغربي القائم على التمركز الذي هو "تكثف مجموعة من الرؤى في مجال شعوري محدد، يؤدي إلى تشكيل كتلة متجانسة من التصورات المتصلبة التي تنتج الذات المفكرة، ومعطياتها الثقافية، على أنها الأفضل، استنادا إلى معنى محدد للهوية، قوامه الثبات والديمومة، بحيث تكون الذات هي المرجعية الفاعلة في أي فعل، سواء باكتشاف أبعاد نفسها أو بمعرفة الآخر"[32].

***- الوعي الغربي وصورة الآخر:**

إن الوعي الأوربي، في شقه المناهض للمركزية الغربية، لا ينى يعبر بكل شجاعة عن رفضه لهذه المركزية، غير مكتف بإدانتها، بل ساعيا إلى تفكيك آلياتها وسبر أغوارها المعرفية من أجل إحداث حالة من الارتجاج فيما اعتقدت الثقافة الغربية أنه من المسلمات التي تتعالى عن أن تخضع لنقد مرجعياتها القيمية. فما دعاه الأنتروبولوجي Michael Singleton بالمعيارية التي تؤسس للثنائية الضدية من خلال استقطاب كل الاستثناءات الغيرية وصبها في بوتقة الأنا الكونية.

ولذلك فالمعياري، منذ عصر التنوير وإلى غاية انخراطه في تحديث العالم المتخلف، لا يستسيغ أن ينعت التطوير الذي يسعى إلى التبشير به في أصقاع العالم النامي بالتغريب. ففي كتابه "نقد الأنتومركزية" يفكك M.Singleton هذه الثنائية التي ألفت الثقافة المركزية

الغربية على تسويقها في الوعي العام، انطلاقا من التقابل بين (السوي) و(غير السوي) من منظور حضاري.

فكل المتخلفين غير أسوياء، حتى وإن جهلوا ذلك أو تعنتوا في رغبتهم أن يظلوا كذلك، الأمر الذي يزود (المتقدم) بقيمتي الحق والواجب، وبين هاتين القميتين، لا يتردد العقل المركزي الغربي في أن يجعل من واجبه في تطوير العالم المتخلف حقا في استعماره[33]. وهي حيلة يلجأ إليها هذا العقل لإسكات تأنيب من الضمير الجمعي؛ فإخراج الهمجيين من عالمهم المتخلف إلى عالم الحضارة مهمة إنسانية تتلاشى أمامها كل الإشكالات القيمية التي تعتري هذا التحول والتي عادة ما تكون ملطخة بدماء هؤلاء الذين لم يطلبوا يوما أن يلجوا عالم الحضارة.

الإحـــــالات:

[1]الثورة الإيرانية، الحرب الأهلية في الجزائر، حروب الخليج، حرب أفغانستان، القاعدة..الخ

[2] Michel Reeber,L'Islam, Coll.Les Essentiels, Editions Milan, Toulouse, 1995, p.34

[3] Voir le lexique Respect mutuel sur www.antiracisme.be, 06/01/2013 22h56

[4] ينظر ، رحالة رومانطيقيون، يوميات ومشاهدات، ترجمة. مي عبد الكريم، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2005، ص.69

[5] Ch.Richard, Etude sur l'insurrection du Dahra, Typographie, Alger, 1977, p.36

[6] Idem

[7] Olivier Le Cour Grandmaison, Coloniser, exterminer, Casbah Editions, Alger, 2005, p.76

[8] Ibid, p. 35

[9] Idem

[10] فرونسوا دو شاتوبريان، الطريق من باريس إلى القدس، ترجمة مي عبد الكريم، دار المدى، دمشق، 2008، ص.13

[11] ينظر ، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[12] فرانسوا دو شاتوبريان، الطريق من باريس إلى القدس، ص.175

[13] ينظر ، المرجع نفسه، ص.210

[14] المرجع نفسه، ص.158

[15] ينظر ، هشام جعيط، أوروبا والإسلام، دار الطليعة، بيروت، 1978، ص.24

[16] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[17] ينظر ، رحالة رومانطيقيون، مرجع سابق، ص68

[18] المرجع نفسه، ص66

[19] Victor Hugo, Œuvres complètes , Club français du livre, Paris , 1970, tome 6, p. 78

[20] Ibid, p.89

[21] Victor Hugo, Choses vues, Œuvres complètes, Robert Laffont, Paris, 1985, Volume Histoire, p.136

[22] جيرار دو نرفال واسمه الحقيقي جيرار لابروني هو كاتب وشاعر فرنسي ولد 22 ماي 1808 بباريس وتوفي يوم 26 جانفي 1855، عرف بأشعاره وقصصه القصيرة خاصة "بنات النار" قام برحلة إلى مصر وبلاد الشام وصدرت في كتاب "رحلة إلى الشرق" عام 1851

[23] إدوارد سعيد، الاستشراق، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 2001، ص.194

[24] ينظر ، المرجع نفسه، ص.195

[25] De Nerval, Gérard, Le voyage en Orient, Tome 2, ENAG, Alger, 1994, p.175

[26] Ibid, p, 173

[27] Guy de Maupassant, Sur les chemins de l'Algérie, Magellan et compagnie, Paris, 2003, p.49

[28] Ibid, p.91

[29] Ibid, p.96

[30] Ibid, p.127

[31] عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص.19

[32] المرجع نفسه، ص10

[33] Michael Singleton, Critique de l'ethnocentrisme, Parangon, Lyon, 2004, p.165